على طريق الأصالة

(٢٤)

الرسول الخاتم

المثل الأعلى والأسوة الحسنة

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسول الخاتم

﴿ المثل الأعلى والأسوة الحسنة ﴾

ما تزال سيرة النبي محمد ﷺ وستظل على مدى الأجيال والقرون وحتى يرث الله تبارك وتعالى الأرض ومن عليها نبراساً للمسلمين وضوءاً كاشفاً فى حياتهم وأعمالهم ووجهتهم ، فقد كانت تطبيقاً كريماً لمنهج الله الذى جاء به القرآن الكريم ونوراً هادياً لكل أمة تريد أن تصل إلى الحياة الكريمة على هذه الأرض أداءاً لحق الله وإقامة لمجتمعه فى الأرض ومن حيث أخذت تنظر فى وقائع حياة الرسول الكريم فأنت لا ريب تجد العبرة والقدوة والأسوة التى تضىء لك الطريق .

ذلك أن حياة الرسول ﷺ ليست حديث تفاخر أو تندر أو تسلية وتبسط ولكن حياة الرسول هى منهج لحياة المسلمين على مدى الأزمان وهى ضرورة حتمية فى أيام الأزمات وفى مراحل الضعف والتخلف وهى عامل أساسى فى سبيل عودتهم إلى الله وإقامة المجتمع الربانى على الأرض من جديد فقد كانت حياة الرسول هى

التطبيق العملي لمنهج القرآن والشريعة الإسلامية وستظل نبراساً للأمة الإسلامية في جميع مراحلها وفي مختلف أزماتها وحين يشتد عليها الحصار والاحتواء من القوى الغازية ومخرجاً لها من كل مؤامرات خصومها

كانت هذه الحياة خصبة حافلة بالعطاء ، ووصلت إلينا كاملة بأدق دقائقها ، كأنما نرى الرسول ﷺ ونسمعه في مختلف وقائع حياته قائماً ونائماً ومتحدثاً وعابداً ومحارباً وقاضياً .

فقد كان هذا كله إذ جمع الله تبارك وتعالى له ولمن تبعه بين الدعوة والدولة ، وبين الرسالة والقيادة ، وبين التبليغ والحكم ، وهو ما لم يتحقق لنبي من قبل ، وقد أعطى ما لم يعط رسول سبقه ، وجاء الأنبياء برسالتهم إلى قومهم وبعثه ﷺ إلى الناس كافة وختمت به رسالات السماء فلا نبي بعده ، وأعطى الأنبياء معجزات حسية لعصرهم وبيئتهم أما هو فقد أعطى القرآن معجزة المعجزات الباقية الخالدة إلى يوم القيامة يقول ﷺ :

(ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن البشر ، إذ كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله لى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً) .

وأعطى الأنبياء كتب السماء ووكل إليهم حفظها فاختلف فيها أما كتاب محمد ﷺ فقد حفظه الله تبارك وتعالى (إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) بل لقد زاده الله شرفا حين قال وإن علينا بيانه)

وما من نبي أو رسول إلا ناداه الله تبارك وتعالى باسمه ، أما نبيكم فقد كرمه الحق تبارك وتعالى (فقال يا أيها النبى ، يا أيها الرسول) وقد جعله حبيباً ومقرباً حتى أقسم بحياته لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) وما حلف الله تبارك وتعالى بحياة أحد قط غيره وزاده حبا حين جعله أشد قربا (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

وعندما عاتبه قدم العفو على العتاب (عفا الله عنك لم أذنت لهم)

وقد كرم الله تبارك وتعالى أمة هذا النبى فوضع عنهم الأصر الذى كان على الأمم قبلهم ، وأحل لهم كثيراً مما شدد على من قبلهم ولم يجعل عليهم فى الدين من حرج ورفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وحديث النفس « وأن من همّ بسيئة منهم لم تكتب عليه سيئة بل تكتب حسنة إن ترك فعلها ومن همّ بحسنة فإن عملها كتبت عشراً » .

قال تعالى (ما جعل عليكم فى الدين من حرج . وقال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وقال تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) .

وقد كرم الله تبارك وتعالى رسالة محمد ﷺ فلم يأخذها بسنن الأمم السابقة بل أعطاها عشرات الرحمات فلم يرسل لها الآيات حتى لا يهلكها حين كذبت ومما أعطى الله تبارك وتعالى أمة

محمد أن جعل فيهم طائفة لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله .

وبعد فإذا ذهبنا نستجلى شمائله الكريمة وجدنا عجباً :

لما انكسفت الشمس يوم وفاة إبنه إبراهيم وقال الناس إنها انكسفت لموته خرج يجر ردائه ويعلن أن الشمس والقمر آيتين من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته .

وعندما سمع الناس الصوت المدوى فى غلس الصباح الباكر وخرجوا منزعجين رأوه ﷺ عائداً من مكان الصوت على فرس عرى وسيفه فى رقبته وهو يقول لهم: لن تراعوا ، لن تراعوا، وعندما وجد رجل يرتعد بين يديه قال له ﷺ :

هون عليك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة وعندما دخل مكة ظافراً منتصراً قال للناس: ما تظنون أنى فاعل بكم : قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال إذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان ﷺ إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس وكان يمد طرف ردائه لحليمة السعدية لتجلس عليه ويلقى وسادته لضيفه ويجلس هو على الأرض ، وكان إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف وإذا ما لقيه أحد فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذى ينزعها وكان يتجمل لإخوانه ويقول : إن الله يحب

من أحدكم إذا خرج لإخوانه أن يتجمل لهم ، وقالوا : كنا نعرف خروج النبى برائحة الطيب ، وقال أنس بن مالك : صحبت رسول الله عشر سنين وشممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من ريح رسول الله وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من النبى ، كأن الأرض تطوى له وإنا لنجهد وهو غير مكترث .

وكان ﷺ إذا رأى المطر قال : اللهم صيباً نافعاً وإذا خاف ضرره قال : اللهم حوالينا ولا علينا . وإذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك وتهلكنا بعذابك ، وكان إذا رأى الهلال قال : الله أكبر ، اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام ، ربى وربك الله ، هلال خير ورشد .

ويقول للمسافر : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك وإذا سرى بالليل مسافراً قال : اللهم أطو لنا الأرض وهون علينا السفر .

وكان يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ويقف للمرأة العجوز فى الطريق ساعة تحدثه وإذا جاء وقت الصلاة قال : أرحنا بها يا بلال .

وكان يوجه أصحابه : يقول ﷺ : لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم

إن أحسن النـــاس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ، ويقول : مـن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ، الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والصغير على الكبير والقليل على الكثير .

ومن ذلك قوله : إذا كنتم ثلاثة فلا تتناجى إثنان دون الآخر ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ويقول لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ويجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا ولا يقضين أحدهم بين اثنين وهو غضبان ، رحم الله رجلا سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

• • •

هـذا رسول الله سماحة نفس وكرم خلق ونبل محتد فإذا جاء الأمر الجليل كان على قدرة من المسئولية حزما وحسما .

- إن الذين من قبلكم كان إذا سرق الشريف فيهم تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد .

- لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

• كل عمل الجاهلية أضعه تحت قدمي وأول ربا أضعه هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب .

. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته .

ويقول ﷺ : إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض واليوم نقول: لقد إستدار الزمن كهيئة يوم بعث رسول الله ﷺ وأن الإسلام الآن في مرحلة اليقظة التي تضعه على طريق الفجر بعد ليل طويل وأن خير ما يحتفل به في مولده هو إلتماس منهجه وتطبيق تعاليمه وإقامة المجتمع الرباني الذي دعا إليه والذي جعلنا مسئولين عنه وتبليغ رسالته إلى العالمين وأن يجمع المسلمون بين العقيدة والشريعة والأخلاق في وحدة واحدة ، هذه دعوة نوجهها إلى إخوتنا أنصار السنة ورجال التصوف حتى يستكمل المسلم عقيدته : دعوة إلى توحيد الله وشريعة مطبقة في منهج الحياة وتزكية نفس بالأخلاق والعبادة فالمسلم سنياً ومتصوفاً ، سلفياً وعابداً ، فارس النهار وراهب الليل .

أن ما يتميز به الإسلام عن عقائد البشر هو أن يجعل وجهته خالصة لله تبارك وتعالى وأن يكون كما عبر عنه رسول الله ﷺ :
« إن هذا الأمر لا يحسنه إلا من أخذه من جميع أطرافه » .

وقد قدم الإسلام بحياة النبي ﷺ مفهوما جديداً لتطور الإنسانية يختلف عن مفهوم الغرب الذى يرى العظمة فى أهل الغنى وأبناء القصور والدرجات وهو مفهوم الجاهلية أيضاً (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فقد جاء النبي يتيما أمياً فقيراً ليجعل الله تبارك وتعالى من النبوة والوحى مقياساً مختلفا عن مقاييس البشر ومناهج الناس (ألم يجعلك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) كما أنه جعل العقيدة قادرة على أن يخرج الإنسان عن أخطاء الوراثة والبيئة مخالفاً مناهج العلوم الاجتماعية المادية .

ومن هنا فإننا يجب أن ننتهز هذه المناسبات لنحشد العبرة الحقيقية لها :

أولا : أن نملأ قلوب شبابنا بالثقة الكاملة والإيمان الراسخ بأن دعوة الإسلام هى أمل البشرية اليوم بعد أن عجزت الأيدلوجيات كلها وتراجعت وهو وحده الذى يحمل لهذا العصر علاج أدوائه .

ثانياً : إن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ هو دعوة الله الأولى والأخيرة منذ بعث أنبيائه .

ثالثاً إن الإسلام هو الذى حرر الإنسانية عن عبوديته الحضارات الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والهندية وحرر العقل الإنسانى من الوثنيات وألغى مفاهيم أرسطو وأفلاطون

حول سيادة السادة وعبودية العبيد وألغى مفهومها الذى ظل مسيطراً مئات السنين وفتح الباب أمام حرية الإنسان من السخرة والرق من ناحية كما حرر عقله وقلبه من عبادة الأصنام والأوثان فالبشرية اليوم مدينة لمحمد ﷺ بهذا التحول الخطير .

رابعاً إن الإسلام هو الذى قدم للإنسانية المنهج العلمى التجريبى ومنهج المعرفة ذى الجناحين ووضع البشرية على طريق المدنية والعلم والتكنولوجيا وأن الإسلام قدم ذلك من توجيه القرآن وأن محمداً ﷺ ودينه وكتابه هو الذى صنع الحضارة الإنسانية حين أنشأ المسلمون المنهج التجريبى ومنهج المعرفة الجامع بين الروح والمادة ومن منطلق الآية القرآنية . (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) . وقوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم) .

خامساً : أن الإسلام ينظر إلى كل قضية من القضايا المعاصرة عن طريق أساسى : هو أن لكل قيمة من القيم جانبان متكاملان : روحى ومادى ولا يمكن فهم أى نظرية أو فكرة أو مذهب دون وضعه تحت هذا المجهر ، ومن قصور الفكر والحضارة الغربيين إلتماسهم طريقاً واحداً هو الطريق المادى .

• • •

يقول رسول الله ﷺ : إن أول دينكم نبوة ورحمة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون ملكا عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون (خلافة على منهاج النبوة) تعمل فى الناس بسنة النبى ويلق الإسلام بجرانه (١) على الأرض ويرضى ساكن السماء وساكن الأرض ولا تنزع السماء من قطر إلا صبته مدراراً ولا تنزع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجته » .

فنحن الآن على طريق الله إلى هذه الغاية وهذه علاماتها ، يقظة وصحوة ونهضة ، يدخل الإسلام إلى كل حجر ومدر فى قارات الأرض الخمسة وتعلو كلمة الله ويسلم المفكرون الغربيون الراغبون إلى معرفة الحق وتتجلى الآيات وتنكشف عن القرآن معجزاته فى الخلق وفى الآفاق ، ومن وراء الكواكب والمجرات يد الله تبارك وتعالى الخالق الصانع القادر فاعتبروا يا أولى الأبصار وتحية عطرة للنبى الأمى ﷺ الذى هدانا إلى طريق الله وشرفنا بأن جعلنا من خير أمة

---

(١) فى القاموس جران وجرين أى أقام فى مكانه لا يبرح .

أخرجت للناس فاستمسكوا به وبكتابه ودعوته إلى التوحيد الخالص وإسلام الوجه لله واصبروا ورابطوا واثبتوا وأبشروا :

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) صدق الله العظيم .

هـذا وبالله التوفيق .



رقم الإيداع ٣٣٨٤ / ١٩٨٩

مطبعة دار البيان - بعابدين